محمـــــد إقبـــــال
شاعر الشرق والإسلام

١٣٨٩ — ١٨٧٣ ١٣٥٧ — ١٩٣٨

الأستاذ مســـــعود الندوى

— ٤ —

نعم ، شعره منقسم إلى قسمين : نوع لا يدرك كنهه إلا الذين أوتوا حظاً وافراً من العلم ، والذوق الأدبى ، وهو الذى أخرجه للمتعلمين والمتأدبين خاصة ، وفيه فلسفة وشعر وحكمة وانتقاد لنظريات فلاسفة الغرب وآرائهم . وقسم فيه الدعوة إلى الجهاد وإيقاظ النائمين من سباتهم وإماطة اللثام عن وجه الحضارة الغربية والسياسة العصرية وغيرها من العظات وأسرار الطبيعة ؛ وهذا يمكن فهمه والانتفاع به لكل من له إلمام بالشعر والأدب . وفوق ذلك أن بعض كلماته كالشكوى إلى الله (شكوه) وشكاة الأمة إلى نبيها (فرياد أُمّت) تُنشدها العامة وتهتز لها طرباً ، لأن الشاعر أعرب فيها عن عواطف جمهور الأمة فصادفت هوى فى قلوبهم . وأضرب لك مثلاً بكلمته الشهيرة السائرة الشكوى إلى الله (شكوه) التى شكا فيها الأمة ورفع شكاتها إلى الله تعالى من إنعامه على الكافرين وإغداق النعم عليهم وسوء حال المسلمين فى العالم وغيرهما من أمور يشكو منها المسلمون فى هذا العصر ويتذمرون عليها فى هذه الحياة الدنيا . وقد بدأها الشاعر بقوله :

« ربنا اسمع قليلا شكوى عبادك الأوفياء المخلصين ، واستمع هنيهة لشكاة الذين تلهج ألسنتهم دائماً بالثناء عليك ، ولا ريب أننا معروفون بالصبر والاستسلام للقضاء ، لكنا نسمعك الآن نفثات القلوب المكلومة لأن نوائب الأيام أجبرتنا على ذلك » .

إلى أن رفع عقيرته قائلا :

« كان يسكن هذه المعمورة السلاجقة والطورانيون ، وكذلك كان أهل الصين فى الصين والساسانيون فى بلاد فارس وأيضاً كان بقطن اليونانيون بهذه الأرض الواسعة . ولكن قل لى بنفسك : أيهم تناول السيف بيده لإعلاء كلمتك ؟ وأيهم قام لإصلاح المجتمع وقطع دابر الفساد من الأرض ؟ »

وهكذا ذهب به كل مذهب فى هذه الشكوى حتى خاطب ربه متألماً :

« رحمتك تتوالى على الأجانب ودورهم ،
أما المسلمون فليس من حظهم إلا رعود النوائب وبروقها ؛

والبلية كل البلية أن الكفار ينعمون بحور مقصورات وقصور مشيدة ، والمسلمون الساكين يعللون بوعود الحور فقط »

وتخال هذه الشكوى كثير من مزايا الأسلاف وخصائص أعمالهم الجليلة التى افتخر بها الشاعر أمام ربه كقوله فى وصف المجاهدين الأوابين :

وكلما حانت الصلاة أثناء صليل السيوف ،
ولت الأمة الحجازية وجهها شطر القبلة وسجدت لله تعالى شاكرة

ووقف محمود (الأمير) وإياز (المملوك) فى وصف واحد فلم يبق هنالك عبد ولا مولى ، وأصبحوا جميعاً عبيداً لله ؛
واتحد العبد والمولى والفقير والغنى ،
ولما وصلوا فى حضرتك ، صاروا وحدة جامعة وكتلة متراصة » .

وكلمة (شكوه) هذه سائرة مسير المثل فى طول بلاد الهند وعرضها . وكذلك يضاهيها فى الشهرة والقبول جواب الشكوى (جواب شكوه) التى رد فيها الشاعر على كل بيت من شكواه وذلك بلسان الله عز وجل ، وكلتاهما أشهر من « قفانبك » ، وقد ترجمت بلغات عديدة . ولكن العارفين بدخائل الكلام يرون أن الشاعر لم يكن موفقاً فى الرد مثل نجاحه فى عرض الشكوى . وذلك غير بعيد من شاعر مطبوع متألم من مصير بنى قومه ، وهو فى ريعان شبابه . وعلى كل فإن الشاعر نجح إلى حد بعيد فى إرشاد إخوانه إلى مواطن ضعفهم فى الدين والأخلاق

هذا وقد عرفت ما بلغه الشاعر الحكيم من علو الفكر ، وسمو البيان فى الدور الثالث من حياته الشعرية ، نريد أن نعرف القراء بشئ من غرر شعره وفرائد حكمه فى الدور الرابع من شاعريته حينما جاوز حد الفتوة ، وأصبح فى عداد الحكماء أكثر منه فى الشعراء . ولكن حكمه منتثرة فى مطاوى دواوينه ، كثيرة متنوعة فى مواضيعها ، بحيث لا يمكن تقدير إحاطتها وتنوعها

بعدة من الأمثلة ، ولذلك يجدر بالمقام أن نبتدئ أولا بذكر دواوينه والإشارة إلى مواضيعها ، ليكون القارىء على بينة من كثرة منظومه وتنوع أفكاره وحكمه ، ثم نلخص نتفاً من آرائه السديدة وحكمه البالغة . أما دواوينه الشعرية ، فهاك بيانها :

١ — بانك درا (صوت الجرس) : مجموعة شعره (باللغة الأردية) في الأدوار الثلاثة الأولى ، وأكثرها دعوة إلى الجهاد وتذكير بالماضي واستهزاء بالحضارة الجديدة في التعليم المصري ونتائجه السيئة .

٢ — أسرار خودى (أسرار فلسفة الذاتية أي فلسفة الاستقلال بالرأي والعزم) : وقف الشاعر هذا « المثنوى » (نوع من الشعر الفارسي) لإيضاح فلسفة « خودى » وبيان نتائجها ، مستدلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية . وفيه تفسير لسورة الإخلاص نفيس في تبيين هذا المعنى ، وذلك بلسان سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وقد ترجم هذه المجموعة الدكتور نكلسن بالإنجليزية وهذا الديوان أيضاً من آثار شبابه

٣ — پيام مشرق (رسالة الشرق) : نظم الشاعر هذا الديوان رداً على (الديوان المغربي) للشاعر الألماني الشهير (غوته) وبين فيه الحقائق والحكم التي تساعد الأمم على تربية عقولها وتثقيف أبنائها بثقافة ناضجة محكمة . وقد أضاف إليه الشاعر مقدمة ممتعة بين فيها ما كان للأدب الفارسي من تأثير في الأدب الألماني ، وأن ديوان غوته المعروف « بالديوان المغربي » أيضاً نتيجة من نتائج هذا التأثير . وهذا أول الدواوين التي نشرها في الدور الرابع من حياته الشعرية . وقد تلقاه أهل الأدب في الشرق والغرب بالقبول . وكان الشاعر أهداه إلى الملك أمان الله خان ، ملك بلاد الأفغان وقتئذ ، حيث كانت الأمة قد عقدت عناصرها عليه وكان صاحبنا يرجو منه شيئاً كثيراً في سبيل أحكام أواصر الأخوة الإسلامية وتوطيد دعائم المجد الإسلامي .

٤ — زبور عجم (زبور العجم) للناس أقوال في تفضيل بعض دواوينه على بعض ، حتى إن بعض الشبان الثائرين يفضلون ديوانه الأول « بانك درا » على جميع دواوينه لكونه مشتملا على روح الثورة والجهاد . ولكن جميع الناقدين متفقون على أن « زبور عجم » شعر ، كما أن « أسرار خودى » فلسفة و (پيام مشرق) حكمة . وفي هذا الديوان من مكنونات أسرار الحياة وغوامض الحكم ما تهش له النفس ويفرح به القلب ،

٥ — « جاويد نامه[1] » سلك فيه الشاعر مسلك المرى في رسالة « الغفران » و « دانتي الإيطالي في ديوانه « Divine Camedey » حيث صاحب الحكيم العارف بالله جلال الدين الرومي وارتقى معه درجات السماء في عالم الخيال ، وراق هنالك أرواح المجاهدين وأسر إليها بذات نفسه ووصف لها أدواء الأمة واستفسر عن دوائها ، فوصف له الدواء الناجع أمثال السيد جمال الدين الأفغاني و « والسلطان الشهيد » (تيپو سلطان[2] ملك ميسور الشهيد) وسعيد حليم باشا ، وحمل حملة شعواء على اللورد كتشنر بلسان الهندي السوداني وأنشبه على نبش قبره تأنيباً شديداً . وفي الديوان كلمة حكيمة حماسية من السوداني إلى ملوك العرب ، ابتدأها لسان الشاعر بقوله :

« فؤاد[3] وفيصل وابن سعود » .

والتي قال فيها : « ذاك بطحا خالد ديكر زاى »

باليت أرض الحجاز أنجبت خالداً آخر .

وكذلك بلغ الشاعر حد الإعجاز في تصوير الخيانة والغدر في أبشع صورة ، حينما ذكر جعفراً[4] وصادقاً[5] ، وقال إنه رآهما مطروحين من وراء النار ، لأنها استنكفت من دخول الخائنين فيها . وأي بيت أبلغ في ذم الخائنين من قوله فيهما :

جعفر از بنگال وصادق أز دكن ننك آدم ، ننك دين وطن

جعفر البنغالي وصـــادق الدكني

كلاهما عار للانسانية والدين والوطن

« يتبع » مسعود الندوي

---

(١) سماه باسم نجله « جاويد » سلمه الله ، وكان إذ ذاك صبياً . و « جاويد » كلمة فارسية معناها « الخالد » . ففي هذه التسمية تورية كما لا يخفى .

(٢) علم من أعلام الجهاد في الهند الإسلامية ، وطود من أطواده الشامخة ، قتل شهيداً على باب حصنه وهو محاط بجنود الانجليز ، ويلقب في التاريخ الإسلامي بالسلطان الشهيد . (٣) « ال » معناه « يا »

(٤) الوزير جعفر ، كان وزيراً لصاحبه وولي أمره ، سراج الدولة في بنغال ، فخانه وغدر به في حرب « پلاسي » التي انكسرت فيها قوات سراج الدولة ؛ وكانت هذه الوقعة هي السبب الأعظم في رسوخ قدم الإنجليز في الهند ، فأصبح مضرب المثل في الغدر والخيانة . أما سراج الدولة فبعده المسلمون والهنادك جميعاً بطلا من أبطال الحرية .

(٥) صادق هذا كان وزيراً للسلطان الشهيد الميسوري ، وقد خانه إذ أطلع الأعداء على مواضع الضعف في الحصن . ودلهم على تدابير السلطان الشهيد الحربية الاستراتيجية — حسب تعبير أهل العصر — فكان سبباً في انكسار السلطان وسقوطه في معترك الجهاد ، وهو مثخن بالجروح ولا يزال قبر صادق معلوماً بجنب قبر السلطان الشهيد ، حيث يبصق عليه كل من يمر به لزيارة الشهيد والدعاء له وتكاب دموعه على ضريحه .